

سهر ذكرى تاتي في بهر النوبة:

إلى عنبية !!

للأستاذ عبد الحفيظ أبو السعود

ما كاد القطار يتحرك من أسوان متجها إلى الشلال . حتى أحسست وزملائي براحة لا تدانيها راحة ، وهدوء لا يماثله هدوء . فقد مكثنا بأسوان خمسة أيام بلياليها على الرغم منا ، إذا أننا لم نجد أمكنة في الباخرة التي ستقلنا إلى ذلك المكان الثاني البعيد في بلادنا المصرية .

وعجيب أن نشعر بالراحة والطمأنينة ، ونحن في طريقنا إلى بلدة لا نعرف فيها شيئا ، ولا ندري من أمرها إلا ما يرغب عنها مما استمعنا إليه من أفواه المتحدثين — ولكن هذا دائما شهور كل مسافر ، فإنه يود أن يصل إلى غايته بأي ثمن .

ولا يمكنني بوجه من الوجوه أن أعبر عن مقدار الرهبة التي سيطرت علينا ، والخوف الذي ملأ قلوبنا عندما وصل القطار إلى الشلال . وعندما شارفنا النيل ، باتساعه وروعته ... ووقف القطار وزكّت أنوفنا رائحة الشواء المجيب .. شواء السمك ، والطعمية والوان مختلطة من الأطعمة الملوثة بالتراب ، والرمال التي تهب مع الريح من فوق السفح والجبل من هنا وهناك ..

وركبنا الباخرة البطيئة (توشكي) وهي إحدى البواخر المصرية التي استولت عليها الحكومة السودانية ظلمًا سنة ١٩٢٥ ، وأخذنا أنا كدنا في ثلاث مقصورات متجاورة ، وسارت الباخرة في الثانية مساءً رويداً رويداً ، نشق صفحة الماء في ببطء ، وكأنما هي شيخ عظم أثقلته الخطوب ، وآدته فوادح الزمن ، فضى يمدد ، ويجمع قواه المهتدة ، ويلهث ويحشرج ، ومع هذا نخونه دائماً قواه ، ولا يحصل من هذا كله إلا على ما يكفيه ليسيير بطيئاً ، متند الخبط ، كأنما يجير وراءه جبال الدنيا بأرسان من حديد ..

يا لله : إننا لا نرى من هنا أو هناك ، سوى جبال شامخة ، بينها تلؤلؤ من الرمال .. ما أروع هذا المنظر المجيب .. جبال

سمره ، وأخرى حمراء قانية ، وبينها رمال منسابة متحدرة ، تحاها أنهاراً من الذهب الواج .

وهنا وهناك على الشاطئ من الجانبين نجوع مختلف باختلاف طبيعة الأرض ، فهذا نجع يرتفع عن شاطئ النيل بجزر واحد أو مترين على الأكثر ، ويحتضنه الجبل في حنان ودعة ، كما يحتضن الأب الرحيم ولده في حرارة الشمس اللاذعة خشية أن تفلك به ، وتضربه ضربة لا يفيق منها مدى الحياة .

وهذا نجع آخر يسير مع الشاطئ في تنابع وتناثر .. بيوت متواضعة متفرقة إن صح أن تسمى هذه الأكواخ المتواضعة بيوتاً وتسير مع الشاطئ ألقى متر أو تزيد ، بيد أنها ليست عريضة عامرة بالسكان ، أهلة بالناس ، ولكنها ضيقة لا تكاد ترى فيها آثراً من آثار الحياة ، اللهم إلا أشباحاً هزيلة ضعيفة ، تبدو عليها آثار الفاقة ، وسبا الضنى واللوعة ، والأسى والهمود .

وهذا نجع ثالث تحاله ميتا لا يتنفس فيه حي ، ولا يعيش فيه مخلوق ، ولكن الباخرة إذا وقفت ، وارتفع سبورها في الجو ، انبثت الرجال والنساء من كل حذب وصوب ، يتلقون (القافلة) المائتة . التي تسير في عرض النيل على بركة الله ، تحمل لهم الزاد واللؤنة ، والكسي والمتاع .. إنهم ينتظرونها مرة في كل أسبوع قادمة من الشلال ، ومرة أخرى قادمة من حلفا ، وفيها البريد .. حتى إذا ارتفع في الهواء لها دخان ، وعلا لها صوت ، انطلقت الحناجر مدوية من هنا وهناك ، في فرح ومرح وبشر وسرور ، فهذا موعد الرسائل من الأحباب والأزواج ... والآباء والأعمام .

أجل فأهل هذه النجوع يحبون وأكثرم نساء مترملات أو في حكم المترملات ، فهن لم يفقدن المائل بالموت ، ولكنهن فقدنه بالبعد والفراق ، وطول المسافة التي يضل فيها الرسول ، والنوى التي يكاد تنقطع معه سبل الوصل واللقاء ..

وهذا نجع رابع — ومثله كثير — مرتفع جدا ، فهو على ارتفاع خمسين متراً تقريباً من سطح النيل ، على ربوة مرتفعة صخرية ، عليها المساكن شامخة على الرغم من حقارتها ، مزينة مع ما هي فيه من ضالة الشأن ، وقلة القيمة . إن الباخرة لتقف أمام هذه النجوع كأنما هي سائلة حقيرة تستعجدي الأكف ،

وتطلب من الناس المونة والاحسان . ١

يا لله ! ما أعجب هؤلاء الذين يقبلون من فوق الجبل من الرجال والنساء ، والبنات والأولاد الصغار في سرعة هجيبة ، يقفزون فوق الصخور ، على مسافات شاسعة ، بسرعة توقعت في الحيرة والخوف ، تظن بأن أحدهم سينحدر إلى الهوة العميقة لاقامة له منها ، ولكن شيئاً من هذا لم يحصل . وكأنما بينهم وبين هذه الصخور المحبة الدقيقة عهد وميثاق ، لا تؤذي أحداً منهم أو تناله بمكروه . وما أعجب مظهرهم وهم يقدون زرافات ووحداً في ثياب بيض ، وعمائم مثل الثياب . تتماثل كلها في طرازها وهيئتها وحياكنها . وما الثوب إلا قريح له جيب واسم ، وأكمام فضفاضة ، والمهمة مكورة في ضخامة تأتي القلة ، وتأنف من البخل والتقتير ، ومن تحت المهمة ترى هذه الوجوه السود ، وتلمع تلك الأسنان الناصعة البياض ، وتلك العيون الحوراء . وتلوح من جيب القميص ، تلك الصدور السود . ومن أسفل القميص تلك الأرجل المفلطحة .. إنه لمنظر يستهوي الأفتدة . ويسبى العقول ، وخاصة تلك السذاجة التي تدفك دفما لاحترام هؤلاء ، أو بالحري الرئاء للحلم ، والإشفاق بهم ، والعطف عليهم أجل . فأنك إذا تفقدت أحوالهم ، واطلمت على مواردكم ، أخذ العجب منك كل مأخذ ، وملك الدهش عليك عواطفك . ووجدت نفسك متسائلاً في إلحاح : من أين يعيش هؤلاء ؟

ولن تجد جواباً شافياً على تساؤلك ، سوى الإيمان المطلق والتسليم المطلق . الإيمان بالله الخالق الأكبر ، والتسليم لله الذي لا ينسى ، ومحال أن ينسى عبداً خلقه وسواء ، وشق سمة وبصره ، فخالق الكون كفل الرزق والحياة لكل فرد من الناس ، مادام له عمر ممدود ، وأجل محدود ، كأننا من كان ، صدق الله العظيم . « وفي السماء رزقكم وما توعدون »

وكانني بهذا الشيخ القبل من نجح (السبوع) لنا في نفسه ، فأمي يا ترى هذه النهاية ؟ إن منظره ليثير في النفس هائل الأمل والوعدة ، والشفقة والحزن .. إنه قد جاوز الثمانين دون ريب .. أحناء الدهر فكأنما هو قوس متحرك . يتوكان في بطاء شديد على عصاه . وكأنما هذه العصا رجل ثالثة يدب بها على الأرض ، لارتياحه في رجله واعتقاده أنها لم يحملاه إلى ما يريد ، ومع ذلك فهو يهرول بشدة ، ولكنه لا يلم السرعة التي يريد بها ويتمناها ، فإن أنفاسه

منقطعة ، وعيته شديد الوطأة ، ألم الحطر ..

وبلاه .. لقد وصلت الباخرة وورست على الشاطئ أمام نجح (السبوع) ووصل الشيخ المهدي إلى المرفأ ، وجلس متكئاً على عصاه أيضاً ، واعتمد برأسه عليها في اطمئنان هجيب .. ولكنه لم يسافر ؟ ولم ينزل إليه من الباخرة أحد ؟ حتى أن من نزل لم يرج عليه .. ترى أكان ينتظر بريداً ؟ أم تحوينا ؟ أم عزيراً لديه من ولد أو حفيد ؟ لم يبد عليه شيء من ذلك ، بيد أن ملامحه كانت تنطق بشيء خفي غريب ، ذلك أنه يأنس بالباخرة ، وأصوات من فيها ، ويطرب بذلك المرح الذي يحدثه الركاب حينما تقف بين حين وحين . إنها تذكره بمهد الشباب والصبا ، يوم أن كان يقفز هنا وهناك دون حاجة إلى سند أو معين ولا افتقار إلى تلك المعاينة التي تضيق عليه الخناق فهي تلازمه في كل مكان وزمان .. ومن يدري فربما تذكره هذه الباخرة بأن له افتقده في صيغة صباه فهو يحن إليها كلما ترسو ، فيقبل وكأنما يلقى فيها ابنه الراحل ، وفلذة كبده العزيز .. وارتفع صفير الباخرة وأخذت تبتعد عن المرفأ ، فجمع الشيخ أطراف نفسه ، وقام متحاملاً عليها ، وماد كما جاء ، ولا يزال بصره عالقاً بالباخرة ومن فيها وكأنما يودعهم الوداع الأخير .

عبر الحفظة أبو السعور -

إدارة الهندسية القروية بالقليوبية

تعلن عن إصلاح دورتي مياه مسجدي
عزبة القصيرين قبة شبرا مصر وهاشم
أنا بمهمشة محافظة مصر وقد تحدد
ظهر يوم ٢٣/٨/١٩٤٧ لفتح السطوات
وتمن الشروط والمواصفات جنية مصرى
واحد بخلاف مائة مليم يريد وتطلب من
الإدارة على ورقة تمته ويمكن الاطلاع
على الرسومات بالإدارة بينها ٧٦٠٠